إسطفانُس يفتدي بولس

الأخت كليمنص حلو
جامعة الروح القدس، الكسليك

مقدمـــة

«لو لم يُصَلِّ إسطفانُس، لَمَا ربح بـولس». هـذا الـقـول الشـهير لأغسطينُس يلفت نظرنا حول العلاقة الأساسيَّة بين رجم إسطفانُس (أع ٧: ٥٤-٦٠) وانفتاح عينَي بولس (٧: ٥٥). فَمَن هو إسطفانُس؟ وما كانت ردَّة فعل بولس الشاهد على قتل إسطفانُس؟ وما هي نقاط التشابه بين إسطفانُس وبولس؟

أوَّلاً، مَن هو إسطفانُس (أع ٦-٧)؟

في الفصلَين ٤ و٥ من أعمال الرسل تبلغ الأزمة حدَّها بين جماعة المؤمنين ومجمع أورشليم (السنهادرين). نجاحٌ من جهة، ومقاومة «إطاعة اللّه» (٥: ٢٩) وردَّة فعلٍ شرسةٍ من جهةٍ أُخرى. وقد تفاقمت الأزمة مع خطاب إسطفانُس وموته.

أ. إسطفانُس هو أحد الشمامسة السبعة

الذين اختارتهم الجماعة «لخدمة الموائد» (٦: ٣) نظرًا لاحتجاج الهلّينيّين، وهم يهودٌ مُهتَدون ذوو ثقافةٍ يونانيَّة، لإهمال أراملهم في «الخدمة اليوميَّة» (٦: ١). وقد انضمَّ هؤلاء الشمامسة إلى الرسل الاثني عشر.

«وكان إسطفانُس ممتلئًا من النعمة والقدرة، فأخذ يصنع العجائب والآيات العظيمة بين الشعب» (٦: ٨). ولمَّا عجز يهود الشتات عن مجادلته نظرًا لِمَا «أعطاه الروح من حكمة»، لجأوا إلى الوشاية بواسطة شهود زورٍ بحجَّة أنَّه تطاول على أُسُس اليهوديَّة: الهيكل والشريعة.

في المحاكمة التي جرُّوه إليها أجاب إسطفانُس بخطابٍ هو الأطول في أعمال الرسل، مختصرًا تاريخ إسرائيل بأربع لوحات:

١. دعوة إبراهيم وهجرته إلى بلاد كنعان (٧: ٢-٨).
٢. بيع يوسف إلى المصريِّين من قبل إخوته، وارتقاؤه في قصر فرعون (٧: ٩-١٦).
٣. نجاة موسى في مصر ولقاؤه باللّه وقيادته لليهود أثناء الخروج من مصر (٧: ١٧-٣٨).
٤. الشعب العبرانيّ يعبد الأصنام ويسجد لعجلٍ من ذهبٍ في البريَّة، وسليمان يبني هيكل أورشليم (٧: ٣٩-٥٠).

ب. ما هو الجديد في هذا الخطاب؟

أربع نقاطٍ محرجةٍ لليهود تظهر في هذا الخطاب:

١. الخلاص ليس مرتبطًا بالأرض بل هو يتمّ دائمًا من خارج أرض كنعان؛ فإبراهيم لم يمتلك أرضًا فيها، ويوسف خلَّص عائلته من الجوع في مصر، وموسى هرب لاجئًا إلى أرض مديان؛ فلا علاقة بين أرض الميعاد والخلاص.
٢. المرسَلون من اللّه، قد اضطهدهم الشعب منذ البداية: يوسف باعه إخوته، وموسى نبذه بنو قومه في مصر، والأبناء

كما الآباء «صُمّ الآذان!» لا يزالون يقاومون الروح القدس: «فأسلموا البارَّ وقتلوه» (أع ١٥-٢٥).

٣. الشريعة التي تسلَّمها اليهودُ من الملائكة لم يعملوا بها (أع ٥٣).

٤. اللّه العليّ لا يمكن حصره في «بيوتٍ صنعتها الأيدي» (أع ٧: ٤٨)، كما قال إشعيا النبيّ (٦٦: ١-٢).

ج. غيظ أعضاء المجلس من إسطفانُس والحُكم عليه بالرجم

إنّ استشهاد إسطفانُس، كما رواه لوقا، يُشبه آلام المسيح وموته على الصليب (لو ٢٢-٢٣). «أخرجوه من المدينة ليرجموه». بعدها قال: «أرى السماء مفتوحةً وابن الإنسان واقفًا عن يمين اللّه». أثناء الرجم أسلم روحَهُ ليسوع وطلب الغفران لصالبيه (٧: ٥٤-٦٠).

ثانيًا، ما كانت ردّة فعل بولس الشاهد على رجم إسطفانس؟

أ. **إنتظر بولسُ المسيحَ مثل اليهود،** وبحسب مفهوم التوراة الذي نقضه إسطفانُس. كان فرّيسيًّا صادقًا وواثقًا، حياته الشريعة. إحتقر يسوعَ الذي قال عن نفسه إنّه المسيح، كما احتقره الفرّيسيُّون. هذا «المصلوب» أشبه بالمجرم: «ملعونٌ مَن عُلّق على خشبة». فشلوا حين ظنّوا أنّه سيُحَرِّرهم من الرومان المحتلّين. إنّ بولس مواطن العالم وذا الثقافة العالية: اليهوديّة والرومانيّة واليونانيّة الشعبيّة، هزئ بتلاميذ يسوع البسطاء واعتبرهم أُمّيّين وجَهَلة.

ب. **حضر بولسُ رَجْمَ إسطفانُس** وحمل «شاول الفتى» ثيابَ الشهود التي خلعوها «ووضعوها أمانةً عند قدميه» (٧: ٥٨). و«كان شاول موافقًا على قتل إسطفانُس» (٨: ١). هذا التأكيد يظهر الثورة في قلب بولس على هؤلاء الهامشيّين الهلّينيّين من الشتات، لأنّهم تصرّفوا مثل يسوع، حسبما ورد في خطاب إسطفانُس. كان الهلّينيُّون المُهتدون إلى «الطريقة»، أي المسيحيَّة، يهربون إلى سوريا، وراء جبل حرمون، اتّقاءً من اضطهاد اليهود.

ولكنّ **انفعالَين مضادَّين** اعتملا في قلب بولس: الانفعال الأوّل العفويّ هو مجابهة التحدّي الصارخ لِمَا يُبشّر به إسطفانُس؛ لقد أنبأ إسطفانُسُ بقرب نهاية المعتقدات اليهوديّة المغلقة، فامتلأ قلب بولس غيظًا ضدّ «الطريقة» التي اعتبرها خطرةً على معتقداتٍ ظنّها مُلْكًا له واضطهد المسيحيّين باسمها. أمّا الانفعال الثاني فهو الهزّة العميقة التي أصابت بولس في الأعماق عندما اكتشف شاهدًا يُفضّل الموت على النكوص بإيمانه. وقد انطبعت في داخله صورتان لإسطفانُس تَقُضّان مضجعه. لقد رأى بولسُ إسطفانُسَ في المحاكمة «وكان وجهه وجه ملاك» (٦: ١٥)، وعلى الأخصّ عندما سجد إسطفانُس وهم يرجمونه وصاح بأعلى صوته: «يا ربّ، لا تحسب عليهم هذه الخطيئة. فقال هذا ومات» (٧: ٦٠)؛ فكأنّ بولس يحضر موت المسيح بالذات، وكان قد فاته الاشتراك فيه.

ج. **موافقة بولس على قتل إسطفانُس تبعها اضطهادٌ** شديدٌ لكنيسة أورشليم وسعيٌ لخرابها: تشتيت وملاحقة وسجن. ولكنّ ما خشيه بولس حصل؛ فالمضطَهَدون المشتّتون أصبحوا مبشّرين بكلام اللّه حتّى بين الوثنيّين (٨: ١-٢٥)، فازداد بولسُ غيظًا، «وكان ينفث صدره تهديدًا وتقتيلاً لتلاميذ الربّ». وطلب رسائل من رئيس الكهنة إلى مجامع دمشق ليلاحق «تُبّاع الطريقة» الذين أخذوا يبشّرون الجاليات اليهوديّة في دمشق، بهدف أن «يعتقل الرجال والنساء...

ويقودهم إلى أورشليم» (٩: ١-٢).

د. **إنتظر الربُّ بولسَ عند مفترق الطريق.** أَوقفه في طريقه دمشق حوالى سنة ٣٦ م. غمره بنورٍ واستجوبه صوت: «شاول، شاول، لماذا تضطهدُني» باضطهادِك للكنيسة؟ فالمسيح إذًا هو حيٌّ وجماعة التلاميذ هم أعضاء جسده. النور في عينيه والصوت في أعماقه أيقظَا فيه الصدمة الخفيَّة التي هزَّته عند مشاركته برجم إسطفانُس. هذا الاختبار أوقعه أرضًا وأعماه حتَّى إنَّ رفاقه اضطرُّوا لاقتياده بيده.

إن وقوع بولس أرضًا هو وقوعٌ عن معتقداته ومكتسباته السابقة الإنسانيَّة والثقافيَّة والدينيَّة، التي فاخر بها واعتبرها ربحًا وغنيمة. فرؤية الربّ القائم من الموت بهرت بنورها عينَيه فعميَ، ولكنَّها فتحت بصيرتَهُ على أعماق الظلمة التي تُحيق به إزاء معرفة سرّ المسيح وأغوارها. تغيَّر فجأةً بالنسبة إليه سُلَّم القِيَم فإذا المواقف التي أَعلنها إسطفانُس في خطابه تخصُّهُ هو بالذات. إنَّه يصف حدث دمشق من ناحية التحوُّل الذي أصابه. فهو يعدّ تجلي الربّ له «اختيارًا» و«دعوة» نبويَّة، «من أجل إعلان ابن اللَّه في ذاته بين الأُمم» (غل ١: ١٥-١٦). ويَعدُّهُ «ظهورًا» (١ كو ١٥: ٨-٩) وتعرُّفًا إلى المسيح الذي من أجله «خسر كلَّ شيءٍ وحَسِبَهُ كالنفاية» (فل ٣: ٤-٩). مع المسيح وُلد بولس بل خُلق من جديدٍ كشخص (٢ كو ٤: ٦).

لقد صلَّى إسطفانُس ساجدًا صارخًا طالبًا الغفران لراجميه، فشمل تضرُّعُهُ بولسَ الذي شارك في رجمه. إنَّ استغاثة إسطفانُس المغموسة بدمه «أصبحت زرع قدِّيسين»، فاستمطرت نعمة الفداء على بولس. فحقٌّ له أن يُردِّد: «بنعمة اللَّه أنا ما أنا عليه الآن، ونعمته عليّ ما كانت باطلة» (١ كو ١٥: ١٠). ويعزو بولس هذه النعمة لصلاة الاستشفاع: لقد «باركنا اللَّهُ استجابةً لصلوات كثيرٍ من الناس» (٢ كو ١: ١١). وإسطفانُس الشاهد والشهيد هو أوَّل مَن افتدى بولس، فتمّ تحوُّله من «حياتي هي الشريعة» إلى «حياتي هي المسيح»، نتيجةً لتجاذبه بين قُطْبَين: استشهاد إسطفانُس وتجلِّي الربّ له «في الطريق».

ثالثًا، ما هي نقاط المقارنة بين إسطفانُس وبولس؟

أ. إسطفانُس وبولس هما من الشتات ولكنَّهما ليسا بدايةً في الموقع ذاته؛ فإسطفانُس يهوديٌّ هلِّينيٌّ يتكلَّم اليونانيَّة، وهو ذو ثقافةٍ منفتحةٍ وبالتالي متحرِّرة. ربَّما اهتدى في أورشليم، ولكنَّه مختلفٌ في مسيحيَّته عن كنيسة أورشليم الملتئمة حول بطرس ويعقوب أخي الربّ. هؤلاء يحسبون يسوع مرسَلاً من عند اللَّه بمثابة ماسيًّا المنتظر لخلاص إسرائيل، وهم يحترمون التوراة ويصلُّون في الهيكل ويحفظون التوصية بعدم المشاركة في أطعمة الوثنيِّين. وبولس كان من جملة الغيورين على هذا الخطّ.

أمَّا الهلِّينيُّون، ومنهم إسطفانُس، فيفكِّرون غير ذلك. المسيحيَّة بالنسبة إليهم ليست حِكْرًا على اليهود بل هي تشمل غيرهم في التنوُّع والاختلاف. فالمسيح خالف السبت لمَّا اقتضت ذلك سلامة الآخرين (مر ٣: ٤)، وهو ينتظر الخلاص من استتباب ملكوت اللَّه لا من الشريعة. ولمَّا قلب موائد الصيارفة في الهيكل تكلَّم عن الجماعة المؤمنة كونها الهيكل الجديد (يو ٢: ١٣-٢٠).

ب. هذا الخلاف ولَّد الصراع بين بولس المتزمِّت والهلِّينيِّين الهامشيِّين «الخونة». ولكنّ العجيب هو أنّ الاستنارة كانت تحدث دومًا عن طريق الاضطهاد. فبولس انقلب وتحوَّل أثناء ملاحقته الشرسة «للهراطقة» بحيث غلبت الضحيَّةُ الجلاَّدَ، على مثال المصلوب «الذي ستراه كلُّ عينٍ

حتّى عيون الذين طعنوه» (رؤ ١: ٧). إنّ غيرة إسطفانُس «الخادم والشاهد» تلاقت مع غيرة بولس ووجّهتها، وكأنّ كُلاً منهما ردَّد في استشهاده: «إن الحبّ أغلى من الحياة».

ج. إسطفانُس وبولس كلاهما استُشهِد على مثال المسيح: آلامهما آلامه. وأتى الاستشهاد تتويجًا لحياتهما. وهما يلتقيان في خبرتهما الروحيّة؛ فإسطفانُس «رأى السماء مفتوحة» (٧:٥٦)، وبذلك اجتياح ملكوت اللّه للأرض؛ وبولس أسّس لاهوتَهُ على التبرير بالإيمان قداسةً وتقديسًا. لكنّ المبادرة تأتي من اللّه، ويبقى عليهما الاختيار بقبول النعمة وتحويل الذات إلى المسيح.

إنّ الدافع الكيانيّ لعطاء ذاتهما الكامل ليصبحا «كُلاًّ للكلّ» على مثال المسيح، هو فيض الحبّ الفائق الوصف والجذريّ، الذي يتمثّل روح التطويبات (مت ٥: ٢١-٤٨)، ويتبنّى شرعة المحبّة (١ كو ١٣)، مدفوعًا من روح المسيح، فيحترق كلٌّ منهما بهذا الحبّ بل يتحوّل إليه، ويُصلب فيه.

إسطفانُس وبولس عَلَمان في تاريخ الكنيسة، وقد افتدياها بالدم. بعد استشهاد إسطفانُس لجأ المؤمنون إلى فينيقية وقبرص، فنقلوا الإنجيل إلى تلك الجماعات، وبالأخصّ إلى كنيستنا في أنطاكيا «حيث دُعي التلاميذ مسيحيّين للمرّة الأُولى» (أع ١١: ١٩-٢٦). وأَنبت قَطْعُ رأس بولس في روما، حسب التقليد، ينابيع حياة. إلى قافلة الشهود والشهداء انضمّ بولس بعد تجلّي الربّ له وتحوّل من عدوٍّ مضطّهد إلى رسول. وأصبحت أنطاكيا محطَّةً له في الحلّ والترحال بعد أن استدعاه برنابا من طرسوس، «وكلاهما علّمَا جمعًا كبيرًا». في أنطاكيا غرف بولس، وهي غرفت منه وانتشرت، فدُعيت عن حقّ «أُمّ الكنائس المسكونيّة».

خلاصة

بولس المدعوّ أصبح داعيةً ورسولاً للأُمم، بصلاة إسطفانُس، فاستحقّ أن يدخل في موكب «الذين غسلوا ثيابهم وجعلوها بيضاء بدم الحَمَل» (رؤ ٧: ١٤). فكنيسة أنطاكيا كنيسة الرسولَين بطرس وبولس، توحّدت مع روما باستشهادهما، وتأسّست أورشليم العروس على أسماء «رسل الحَمَل». فيها «يسكن اللّهُ معنا» (رؤ ١٢)، عمّانوئيل، «طول الأيّام وإلى منتهى الدهر» (مت ٢٩: ٢٠).